كما يبدو لقرائه السطحيين . صحيح انه كرس كل طاقته الخلاقة ونشاطه الاجتماعي في خدمة قضيته الكبرى . وصحيح ان هذه القضية ، بجماهيرها واشكال صراعها ، كانت هاجسه العظيم . ولكن الكتابة ، كقضية ، كانت ايضا هاجسه . وان التعامل مع سؤال مثل « قضية الكتابة » جعله قادرا على التطور الدائم وحيا الى هذا الحد .

لم يستطع غسان كنفاني ان يكون مؤثرا وفعالا الا لانه كان كاتبا محترفا .. حتى في كتابته الصحفية او اليومية كان شديد الخصوصية والتميز والاتقان . رشيقا ومتوترا كغزال يبشر بزلزال .

كان ممتلئا بحيوية نادرة في هذا الجيل . كان مسكونا بكهرباء لا تنضب . ولم يترك لنشاطه الواعي مجالا واحدا للراحة . لم يقض اجازة لاستعادة قواه بين رواية واخرى ، او عمل وآخر . لم يذهب للامتلاء بالتأمل من اجل تنفيذ عمل كتابي جديد . كان يجدد وقوده الابداعي بتبذير قواه . كان يتزود بالطاقة تلقائيا ، فالذاكرة الجماعية لا تستنزف . وكان يستعيد ملء طاقاته بعمليات تفريغها الدائم .

هل كان حقا يشعر بموته المبكر ، فاطلق ينابيعه الى هذه الدرجة من الاسراف ؟ هل كان هاجس الموت يستدرجه لصب طاقاته في وقت قصير ؟ هل كان استشرافه لهذه النهاية — البداية دافعا لتناول كل اشكال التعبير من قصة ورواية ومسرحية ودراسة وبحث ونقد ، ليسجل دمه على اصابعنا وذاكرتنا ؟ وهل كان يسبق الموت الى الحياة في الكتابة ؟

ربما . وربما كان هذا السباق احد اجمل تجليات « الانانية » الخلاقة والفنانى في آن واحد . انها شكل نادر من اشكال تحقيق حياته في سياق تبذيرها في حياة الآخرين . وهكذا تتحول انانية الفنان الى نهر كريم .

ان الذين عرفوه ، عن كثب ، كانوا يعرفون مدى حيويته وقدرته الثمينة على العمل . وكانوا يعرفون ايضا حرصه المرهق على تحقيق ذاته الفنية . كان يقوم بكل الاعمال العامة طيلة النهار . وفي آخر الليل ... في اول الفجر كان يذهب الى كتابته « الخاصة » ، الى كتابته الفنية ، فلم يكن متاحا له ان يتخصص بشكل علني . كان يحترف الكتابة سرا . لماذا ؟ لانه فلسطيني ... ببساطة لانه فلسطيني .

لم يقل احد ان الفلسطينيين لا يرحمون ادباءهم . سأقول : ان الفلسطينيين لا يرحمون ادباءهم . ذلك من فرط ايمانهم بفاعلية الادب الذي قدم لهم، ومنهم ، تعويضا عن مهانات ، عندما فقدوا كل شيء ولم يملكوا الا كلمات . وذلك لانه استمد منهم القوة ليؤسس لهم العلاقة . نادرا ما يسطو الوطن ، كما يسطو على ادب الفلسطينيين . ولذلك ، يدرك الفلسطينيون ، وبحق ، انهم هم الذين خلقوا ادباءهم .. ولذلك ايضا يطالبونهم دائما بالمواطنية المثالية وبالطاعة الفولاذية ، ولا يسمحون لهم في ان يكونوا اقل من جنود او قديسين . ومن هذه العلاقة الصارمة ، من هذه المطالبة التي تشمل كل شيء يجد الاديب الفلسطيني نفسه « يسرق » حرفة الادب سرا . وفي النهار عليه ان يمارس اشكالا اخرى للتعبير عن التزامه بسلطة الوطن !